بغية الوعاة

في طبقات اللغويين والنحاة

للحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي

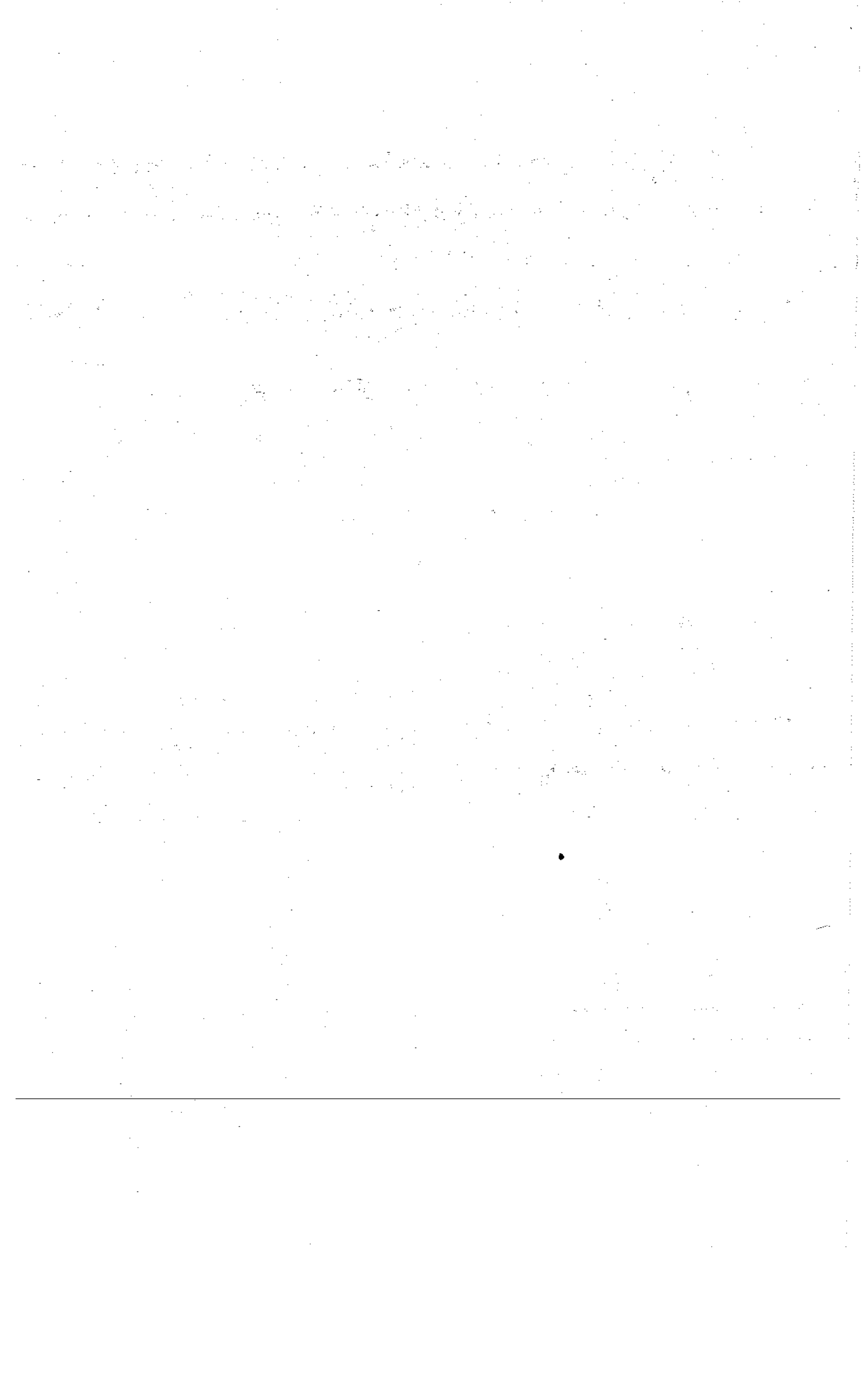
تحقيق

محمد أبو الفضل إبراهيم

الطبعة الثانية

١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م

دار الفكر



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

عُنِىَ العربُ بتدوين تاريخهم عنايةً قلّ أن تُساويهم فيها أمة من الأمم أو تُدانيها ؛ وافتنّوا فى ذلك افتناناً يدعو إلى العَجب والإعجاب ؛ فمن ذلك ما ألّفوه فى تاريخهم السياسىّ من الكتب والأسفار الطّوال ؛ مرتّباً على السنين ، أو مقسّما بحسب الدول والإمارات ؛ وضمّنوه أخبار ملوكهم وخلفائهم وأمرائهم وحروبهم وأيّامهم ، ومظاهِر مدنيّتهم وحضارتهم ، وصنوف علومهم ومعارفهم وألوان ثقافتهم ؛ مع ذكر مجتمعاتهم وأسواقهم وأجْلاب تجارتهم ؛ ولم يخلُوه من الاستطراد إلى رواية أشعارهم وآدابهم ، والاسترواح بالحديث عن محاوراتهم ومطايباتهم وأفاكيههم ؛ كما نرى ذلك فيما كتبه الواقدىّ واليعقوبىّ والطبرىّ والمسعودىّ وابن مسكويه وابن الأثير وابن كثير وابن خلدونٌ والمقريزىّ وغيرهم .

ومنه ما وضعوه فى تراجم الرواة ، ورواة الحديث على الخصوص ؛ فجمعوا أخبار الثّقات ، وميّزوا رُواة كتب الصحاح ، وأحصوا الضّعفاء والمتْروكين والوضّاعين والمدلّسين ؛ ليمتاز الحسن والصحيح عن الضعيف والموضوع ؛ كما فعل البخارىّ والنسائىّ والدارقُطنىّ وابن أبى حاتم والمِزّىّ والذّهبىّ وابن حَجَر ؛ وكتبهم فى ذلك سائرة مشهورة.

أوماصنفوه فى تاريخ البلدان وتراجم من نشأ فيها، أو رحل إليها من العلماء؛ وخاصّة البلاد التى زخرت بالمدارس والمعاهد، وعمرت مجالسها بصنوف المعارف والآداب ؛ كبغداد والكوفة والبصرة ودمشق ومكّة والمدينة وبلاد اليمن والرّىّ ومَرْو وإربل وبلخ وقزوين والقاهرة وقوص والقَيْرَوان وبلاد الأندلس ؛ وكانت هذه الكتب مراجع أصيلة فى تاريخ الآداب والفنون .

كما ألفوا فى طبقات شتى من الناس ، كالفقهاء والحكماء والأطباء والأعْيان والشعراء

والعميان والعور ؛ حتى الحمقى والمفلوكين والمزورين ؛ كان لهم فى تاريخ العرب نصيب .

وكان علماء اللّغة والنّحو من هؤلاء الذين عُنِى بهم فريق من المصنّفين عناية خاصة ، فدوّنوا أخبارهم ، وأحصوْا كتبهم وآثارهم ، وحددوا مواليدهم وأعمارهم ووفياتهم ، وتتبعوهم فى رحلاتهم ، وبسطوا القول فى مذاهبهم وآرائهم ، وتعرّضوا لنقدهم فى كثير من الأحيان ؛ إذ كان هؤلاء العلماء هم الذين جمعوا اللّغة وحملوها ، ووضعوا الكتب والمعاجم فيها ؛ وكانوا أيضاً هم الذين استقرءوا كلام العرب ودرسوا مختلف الأساليب ، ثم وضعوا أصول النّحو والصّرف والرسم والنقط والشكل ؛ وكان لهم فى ذلك المذاهب المختلفة والكتب الكثيرة المتنوّعة ، ثم هم الذين رووا الأبيات السائرة ، والقصائد الرائعة ، وميّزوا الجيد من الزائف ، والصحيح من المنْحول ؛ وبفضلهم حُفِظ على الأيام أسمى ما صدر عن القرائح ، وأفصح ما نضحَتْ به أخيلة الشعراء .

وكان من أوائل من ألّف من هذا الشأن محمد بن يزيد المبرّد وأحمد بن يحيى المعروف بثعلب ومحمد بن عبد الملك التاريخىّ وعبد الله بن جعفر بن درَستويه؛ ألَّفُوا كتباً صغيرة أوردها ياقوت فى مقدمة معجم الأدباء[1] وقال بعد أن ذكر هذه الكتب: « ثم صنّف فيه أبو عبد الله محمد بن عمران المرزبانىّ كتاباً حفيلاً على عادته فى تصانيفه ؛ إلّا أنه حَشاه بما رَوَوْه ، وملأه بما وَعَوْه ، فينبغى أنْ يسمَّى مُسند النّحويين ؛ وقد وقفت على هذا الكتاب ، وهو تسعة عشر مجلدا ، ونقلتُ فوائده إلى هذا الكتاب ؛ مع أنّه قليل التّراجم بالنّسبة إلى كبر حَجْمه . ثم ألّف فيه أبو سعيد الحسن بن عبد الله بن المرزبان السِّيرافىّ القاضى كتاباً صغيراً عن نحاة البصرة »[2] .

وفى القرن الرابع ظهر كتابان جليلان فى هذا الشأن ؛ هما كتاب طبقات النّحويين واللّغويين لأبى بكر محمد بن الحسن الإشبيلىّ ؛ أحد أعْيان الأندلُس وفضلائها ، وكتاب مراتب النّحويين لأبى الطيّب اللغوىّ من علماء بغداد ثم حلَب ؛ وهما وإن كانا متفقيْن فى الموضوع والغاية إلّا أنهما يختلفان شِرعة ومنهجا ؛ فكتاب الزبيدىّ بناه على الطّبقات

(١) مقدمة معجم الأدباء ١ : ٤٧ . (٢) كتاب السيرافى طبع فى بيروت سنة ١٩٣٦ .

والمدارس ، وعُنى فيه بذكر المواليد والوفيات ، وملأه بمختلف الأخبار والطُّرَف والحكايات ؛ عن النّحويين واللّغويين، من صدر الإسلام ، ثم من تلاهم إلى شيخه أبى عبدالله الرياحىّ الأندلسىّ المتوفى سنة ٣٥٨ . وكتاب أبى الطيب أداره على ذكر مراتب العلماء ومنازلهم من العلم وحظهم فى الرواية وعقد الصّلة بين الشيوخ والتلاميذ منذ ظهور اللّحن ووضع النّحو ثم ظهور مدرستى الكوفة والبصرة إلى أن انتهى العلم منهما ثم انتقل إلى بغداد. وقد شاع أمرُ هذين الكتابين بين العلماء ؛ ونَقَلَ عنهما مَنْ جاء بعدها ممّن كتبوا فى هذا الشأن[1] .

قال ياقوت : « ثم ألّف فيه القاضى أبو المحاسن المفضّل بن محمد بن مسعر المغربىّ كتاباً لطيفا ثم علىّ بن فَضّال المجاشعىّ كتابا وسمّاه « شجرة الذهب فى أخبار أهل الأدب » ، وقع إلىّ شىء منه ، فوجدته كثير التراجم ؛ قليل الفائدة ، لكونه لا يعنى بالأخبار ، ولا يعبأ بالوفيات والأعمار » .

وذكر القفطىّ فى ترجمة محمد بن الحسين اليمنىّ المتوفىّ سنة ٤٠٠، أنه ألّف كتابا فى أخبار النّحويين ؛ ونقل عنه فى مواضع كثيرة من كتابه .

ثم وضع أبو البركات عبد الرحمن بن محمد الأنبارىّ المعروف بالكمال ، كتاباً قال فى حقه : « ذكرتُ فى هذا الكتاب الموسوم بنزهة الألبّاء فى طبقات الأدباء معارفَ أهل هذه الصّناعة من الأعيان ، ومَنْ قاربهم فى الفضل والإتقان ، وبيّنت أحوالَهم وأزمانهم على غاية الكشف والبيان »؛ من عهد أبى الأسود الدؤلىّ إلى شيخه أبى السعادات هبة الله بن علىّ بن محمد بن حمزة المعروف بابن الشجرىّ ، المتوفى سنة ٥٤٢[2] .

وفى القرن السابع قام الوزير جمال الدين أبو الحسن علىّ بن يوسف القفطىّ بتأليف كتابه المعروف « بإنباه الرواة على أنباه النحاة » ، ذكر فيه : « مشايخ علمِى النحو

---

(١) طبع كتاب طبقات الزبيدى بمطبعة السعادة سنة ١٩٥٤م، وكتاب مراتب النحويين بمطبعة نهضة مصر سنة ١٩٥٥ ، وكلاهما بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. (٢) طبع كتاب نزهة الألباء طبع حجر بمصر سنة ١٢٩٤هـ ، وأخرى بالعراق سنة ١٩٥٩م

واللغة ؛ ممّن تصدّر لإفادتهما تصنيفاً وتدريساً ورواية ، فى أرض الحجاز واليَمن والبحرين وعُمان واليمامة والعراق وأرض فارس والجبال وخراسان وكَرْمسير وغَزْنة وما وراء النهر وأذربيجان والدَّار وأرمينيَة والمَوْصل وديار بَكْر وديار مُضَر والجزيرة والعوَاصم والشّام والسّاحل ومصر وعَمَلها وإفريقيّة ووسط المغرب وأقصاه وجَزيرة الأندلس وجزيرة صِقِلّيّة » ، ورتّبه على حروف المعجم بعد أن صدّره بترجمة علىّ بن أبى طالب ثم أبى الأسود الدؤلىّ[1] .

وفى القرن الثامن وضع عبد الباقى بن علىّ بن عبد المجيد القُرشىّ اليمانىّ ، كتابا صغيرا أسماه إشارة التعيين[2] قصره على المشهورين منهم ، على ترتيب حروف المعجم ؛ ذكر أنّه فرغ من تأليفه سنة ٧٧٣ ؛ كما قام أبو بكر بن أحمد بن محمد بن عمر الأسدىّ المعروف بابن قاضى شُهبة والمتوفى سنة ٨٥١ كتابا آخر أسماه طبقات النحويين واللغويين[3] ؛ أودع فيه أسماءهم مرتبة على حروف المعجم أيضا .

ثم جاء بعد هؤلاء جميعا عالمنا الجليل عبد الرحمن بن أبى بكر السيوطىّ ، فوضع كتابه العتيد « بُغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاه » ؛ أودعه صفوة جميع الكتب التى سبقته فى هذا الشأن ، وزادَ عليها ما انتقاه من كتب الأدب والتاريخ والتّراجم ومعاجم الشيوخ والتّذكرات ومقدّمات الكتب عدا مشاهداته وأخبار شيوخه وعلماء عصره ؛ قال فى وصفه : « بنيتُ فيه للنّحاه طبقاتٍ قواعدها على ممرّ الزمان لا تهى ، وأحييتُ فيه ميتَهم فلم أغادر شهيرا ولا خاملا إلا نظمتهُ فى سِلْك عِقْدِه البَهِى ، فلو رآه البيهقىّ لخلع وشاحه بين يديه توقُّراً ، أو ابن الأبّار لخلع عليه حُلّتَه السِّيَرا ، أو ابن بسّام لأضحى عابساً لنفادِ ذخيرته ، أو ياقوت الحموىّ لقال : هذه الدرّة اليتيمة التى لم يقع عليها الأصبهانىّ حين أتى بخريدته ، على أنى لا أبيمه بيع سَلَامةٍ ، ولا أدّعى أنه لم يفتنى فاضلٌ أو عَلّامة .

---

(١) طبع من كتاب إنباه الرواة ثلاثة أجزاء بمطبعة دار الكتب المصرية ، بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ؛ والجزء الرابع والأخير تحت الطبع . (٢) من هذا الكتاب نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم ١٦١٢ ـ تاريخ . (٣) منه نسخة مخطوطة بالمكتبة الظاهرية بدمشق .

أنّى لى ، ونجباء الدّنيا لا تحصى ، وأخبارهم شتّى ولا تستقصى ، خصوصاً علماء العَجَم المتأخّرين فإنّهم ضَيعوا أنفسهم بترك تاريخ يجمع شملَهم . وقد اعتنى بذلك المتقدّمون من علماء محدّثيهم ، فاستعنّا بما وقفْنا عليه من تواريخهم ، كتاريخ بغداد للخطيب البغدادىّ والذّيل عليه للحافظ تقىّ الدين بن رافع ، وتاريخىْ نَيْسابور للحاكم وعبد الغافر ، وتاريخ جرجان للسهيمىّ ، وتاريخ أصبهان لأبى نُعَيم . وأمّا المغرب فأهله أصحاب اعتناء شديد بذلك ، والنّحاة جَمٌّ غفير ، وأكثر ما وقفنا عليه من تواريخهم تورايخ الأندلس ، كتاريخ ابن الفَرَضِىّ وابن بَشْكوال وابن الزُّبير وابن عبد الملك والرّيحانة لابن عاتٍ وتاريخ غرناطة لابن الخطيب ، وأما غيرها من بقيّة بلاد المغرب فلم نقف على تواريخه ، إلا المُغرب فى تاريخ بلاد المغرب عامّةً لابن سعيد . وأما الحجاز فوقفنا من تواريخه على تاريخ مكّة للتقىّ الفاسىّ ـ وهو متأخر لم يستوعب ـ وتاريخ اليمن للجَندىّ والخزْرجىّ وهو حافِل . وأمّا الشّام فوقفنا على تاريخها لابن عساكر وأعظِمْ به ، وتاريخ حَلَب لابن العَديم ، وأمّا مِصْر فلم نقف على تواريخها إلّا تاريخ ابن يونس ، وهو مجلّد لطيف .

هذه التّواريخ المذكورة قد استوعبناها كلّها ، ولم ندَع فيها أحدا ممّن تحققنا أنه نحوىّ إلا ذكرناه ؛ مع ما وقفنا عليه من التّواريخ التى لا تختصّ ببلد ؛ كتاريخ الإسلام للذّهبىّ وطبقات القرّاء له والدّرر لشيخ الإسلام ابن حَجَر فى أعيان المائة الثّامنة وإنباء الغُمْر بأبناء العمر له ، وتاريخ الصّلاح الصفدىّ ، والمسالك لابن فضل الله العمرىّ ، وذيل طبقات القرّاء للعفيف المطرىّ ، وطبقات النّحاة للسِّيرافىّ وللمفضّل الضّبّى ولأبى بكر الزبيدىّ ، وطبقات أئمة اللغة للشّيخ مجد الدين الشيرازىّ ، ومعجم الأدباء لياقوت الحموىّ ، والنّضار لأبى حيان ؛ إلى غير ذلك من المعاجم والتعاليق التى لا تحصى » .

وأصل هذا الكتاب على ما بيّنه السيوطىّ مجموعة كبيرة أودع فيها جميع ما فى كتب الأدب والتاريخ « من ترجمة نحوىٍّ طالتْ أو قصرت ، خفيَتْ أخباره أو اشتهرتْ » ، أوْردَ فيه من « فوائدهم وأخبارهم ومُناظراتهم وأشعارهم ومرويّاتهم ومفرداتهم ما لم يجتمع فى كتاب ، بحيث بلغت المسوّدة سبع مجلدات » .

قال : « فلمّا حللتُ بمكّة المشرّفة سنة تسع وستين ، وقفتُ عليها صديقنا الحافظ نجم الدين بن فهد . . . فأشار علىّ أن ألخّص منها طبقاتٍ فى مجلّد ؛ يحتوى على المهمّ من التراجم ، ويجرى مجرى ما ألِفه الناس من المعاجم ، فحمدت رأيَه ، وشكرت لذلك سَعْيَه ، ولخّصت منها اللّباب فى هذا الكتاب » .

وقد رتب تراجمه على حروف المعجم ، وابتدأها بالمحمدين ثم بالأحمدين تبرّكا ، وجعل فى آخرها باباً فى الكنى والألقاب والنّسب والإضافات مرتّبا على الحروف ، وآخر فى المؤتلف ؛ وهو المتّفق خطا المختلف لفظا ، وثالثا فى الآباء والأبناء والأحفاد والأخوة والأقارب ، ورابعا فى أحاديث منتقاة من الطبقات الكبرى له . وذكر فى آخره أنه فرغ من تأليفه فى شهر شعبان سنة إحدى وسبعين وثمانمائة .

وقد امتاز كتاب بغية الوعاة عن بقيّة الكتب التى سبقته بأنه يعد أشمل كتاب ألّف فى هذا الفن ؛ أتى فيه على ما فى الكتب السابقة وأضاف إليها ما فاتها من تراجم ، وما وقع له من أخبار شيوخه ومعاصريه ؛ كما أنه نقل عن كتب أصبحت مفقودة وأخرى ما زالت فى دور الكتب مخطوطة ؛ وصوّب نصوص كثير من الكتب المطبوعة التى رجع إليها ، وأكمل نواحى النقص فيها ؛ وكشف الغموض عما أبهم منها ؛ فهو بهذا الاستيعاب الشامل ، وذلك الترتيب الدقيق الكامل ، وما ألحق به من أبواب تدنى أقاصيه ، وتقرب نواحيه ؛ يستأهل أن يكون غُنية المتأدبين ، ومرجع الباحثين ، وعمدة الدارسين .

* * *

هذا ، وقد رجعت فى تحقيق هذا الكتاب إلى النسخ الآتية :

١ — نسخة مصورة عن نسخة كتبتْ بخطّ أحمد بن الخطاب بن عمر النشاوىّ سنة ٩٧٩ ، بخط معتاد ، مقابَلةً على نسخة أخرى ، وأُثْبِتَتْ المقابلة فى حواشيها ؛ وعليها بعض التملّكات ؛ تملّكها محمد بدر الدين القرافى المالكى سنة ٩٧٩ ، ثم محمد المقرئ الحنفىّ سنة ١٠٤٤ ، ثم زين الدين البصراوىّ سنة ١٠٧٥ . وهى محفوظة

بدار الكتب المصرية برقم ١٥٦٧ — تاريخ ، وتقع فى مائتى ورقة وثلاث ورقات ، فى كل صفحة ثلاثة وثلاثون سطرا ؛ وفى كل سطر خمس عشرة كلمة تقريبا ؛ وهى نسخة جيدة ؛ وأخطاؤها يسيرة ؛ مع خلوها من الضبط ؛ وقد اتخذتها أصلا لقرب عهد كتابتها بعهد المؤلف من ناحية ؛ وباعتبارها نسخة كاملة مقابلة من ناحية ثانية ؛ وقد رمزت لها بلفظ « الأصل » .

٢ — قطعة مصورة عن نسخة مكتوبة بخطوط مختلفة، محفوظة بالمكتبة التيمورية برقم ٥٢٤—تاريخ؛ تبدأ من أثناء الكلام على محمد بن أحمد بن الفخار الجذامى الأركشى ص١٩٧ وتنتهى فى أثناء الكلام على علىّ بن الهيثم الكاتب الأنبارىّ ص ٥١٨ . وهى مكتوبة بخط جيد صحيح[1] ؛ وقد ضبط فيها كثير من نصوص الشعر والأعلام وأسماء البلاد ضبطا صحيحا، وفى كل صفحة من صفحاتها سبعة وعشرون سطرا ؛ فى كلّ سطر خمس عشرة كلمة تقريبا وقد رمزت إليها بالحرف (ت) .

٣ — نسخة طبعت بمطبعة السعادة سنة ١٣٣٦ تقع فى ٤٦١ صفحة ؛ يشيع فيها الخطأ والتحريف . وقد رمزت إليها بالحرف (ط) .

كما أنى رجعت إلى ما تيسّر لى من الكتب التى نقل السيوطى عنها ، كمعجم الأدباء وإنباه الرواة وطبقات الزبيدى ومراتب النحويين والسيرافى وابن الفرضى وابن بشكوال والإحاطة والمغرب والطالع السعيد ، وما طبع من الوافى بالوفيات وابن خلكان وغيرها ؛ وأثبتّ المهم من فروق النسخ والمراجع فى الحواشى ؛ وكان حرْصى على سلامة النص وضبط الغريب وشرح المبهم أكثر من حرصى على التعريف بالأعلام والبلاد والإسراف فى الشرح والتعليق ؛ إذ كان ذلك أهمّ ما يحتاج إليه العلماء والباحثون عند الرجوع إلى الكتب المحققة.

* * *

وجلال الدين السيوطىّ مؤلف هذا الكتاب أغنى الباحثين عن تاريخه وذكر شيوخه ومؤلفاته، فكتب لنفسه ترجمة عند الكلام على من كان بمصر من الأئمة المجتهدين من كتابه

(١) يرجح صديقنا الأستاذ فؤاد السيد أمين المخطوطات بدار الكتب أنها بخط السيوطى نفسه.

حسن المحاضرة ، قال: «. . . عبد الرحمن بن الكمال أبي بكر بن محمد بن سابق الدين بن الفخر عثمان بن ناظر الدين محمد بن سيف الدين خضر بن نجم الدين أبي الصلاح أيوب بن ناصر الدين محمد بن الشيخ همّام الدين الهمام الخضيري الأسيوطيّ .

وإنّما ذكرتُ ترجمتي في هذا الكتاب اقتداء بالمحدّثين قبلي ؛ فقلّ أن ألّف أحدٌ منهم تاريخا إلا ذكر ترجمته فيه ؛ وممّن وقع له ذلك الإمام عبد الغافر الفارسيّ في تاريخ نيسابور وياقوت الحمويّ في معجم الأدباء ، ولسان الدين بن الخطيب في تاريخ غرناطة والحافظ تقيّ الدين الفاسيّ في تاريخ مكّة والحافظ أبو الفضل بن حجَر في قضاة مصر ، وأبو شامة في الرّوضتين ـ وهو أورعهم وأزهدهم ـ فأقول :

أما جدّي الأعلى همّام الدين ؛ فكان من أهل الحقيقة ومن مشايخ الطرق ـ وسيأتي ذكره في قسم الصّوفيّة ـ ومَنْ دونه كانوا من أهل الوجاهة والرّياسة ، منهم من وليَ الحكم ببلده ، ومنهم من وليَ الحسْبة بها ، ومنهم من كان تاجرا في صحبة الأمير شيخون وبَنى بأسيوط مدرسة ووقف عليها أوقافا ، ومنهم من كان متموّلا ؛ ولا أعلم منهم من خَدم العِلْم حقّ الخدمة إلا والدي ـ وسيأتي ذكره في قسم فقهاء الشافعية ـ وأما نسبتُنا بالخضيريّ فلا أعلم ما تكون هذه النسبة إلا الخضيرية ، محلّة ببغداد . وقد حدثني مَنْ أثق به أنّه سمع والدي رحمه الله يذكر أن جدّه الأعلى كان أعجميًّا ، أو من الشّرق ؛ فالظاهر أنّ النسبة إلى المحلّة المذكورة .

وكان مولدي بعد المغرب ليْلة الأحـــد مستهلّ رجَب سنة تسع وأربعين وثمانمائة ، وحُملت في حياة أبي إلى الشيخ محمد المجذوب ؛ رجل كان من الأولياء بجوار المشهد النفيسيّ ، فبرّك عليّ . ونشأتُ يتيما فحفظت القرآن ولي دون ثمان سنين . ثم حفظت العُمدة ومنهاج الفقه والأصول وألفيّة ابن مالك ، وشرعتُ في الاشتغال بالعلْم من مستهلّ سنة أربع وستين ، فأخذت الفِقْه والنّحو عن جماعة من الشيوخ ، وأخذت الفرائض عن العلّامة فَرضيّ زمانه الشيخ شهاب الدين الشارمساحيّ ؛ الذي كان يقال : إنه بلَغ السنّ العالية ، وجاوز المائة بكثير ـ والله أعلم بذلك ـ قرأتُ عليه في شرحه على المجموع .

وأُجِزْت بتدريس العربيّة فى مستهلّ سنة ستّ وستّين ، وقد ألّفت فى هذه السنة ، فكان أوّل شىء ألّفتُه شرح الاستعاذة والبسملة ، وأوْقفتُ عليه شيخنا شيخ الإسلام علم الدين البُلقينىّ ، فكتب عليه تقريظاً ؛ ولازمته فى الفقه إلى أن مات ، فلازمت ولده ؛ فقرأت عليه من أوّل التّدريب لوالِده إلى الوكالة ، وسمعتُ عليه من أوّل الحاوى الصّغير إلى العدد ، ومن أوّل المنهاج إلى الزّكاة ، ومن أوّل التّنْبيه إلى قريب من الزّكاة ، وقطعة من الرّوْضة ، وقطعة من تكملة شرح المِنهاج للزركشىّ ومن إحياء الموات إلى الوصايا أو نحوها .

وأجازنى بالتّدريس والإفتاء من سنة ست وسبعين ، وحضر تصديرى ؛ فلما تُوُفِّىَ سنة ثمانٍ وسبعين ، لزمت شيخ الإسلام شرف الدين المناوىّ ، فقرأتُ عليه قطعةً من المنهاج ، وسمعته عليه فى التقسيم إلا مجالس فاتتْنى ، وسمعت دُروساً من شرح البهجة ومن حاشيته عليها ومن تفسير البيضاوىّ .

ولزمت فى الحديث والعربيّة شيخنا الإمام العلامة تقىّ الدين الشّبلىّ الحنفىّ ، فواظبتُه أربع سنين ، وكتب لىّ تقريظا على شرح ألفيّة ابن مالك وعلى جمع الجوامع فى العربيّة تأليف ، وشهد لى غير مرّة بالتقدّم فى العلوم بلسانه وبنانه ، ورجع إلى قولى مجرّدًا فى حديث ؛ فإنه أورد فى حاشيته على الشّفاء حديث أبى الجمرا فى الإسرا ، وعَزَاه إلى تخريج ابن ماجه ، فاحتجت إلى إيراده بسنده ، فكشفت ابن ماجه فى مظنّتِه فلم أجده ، فمَرَرْتُ على الكتاب كله فلم أجده ، فاتّهمت نظرى ، فمررت مرة ثانية فلم أجده ، فعدت ثالثة فلم أجده ، ورأيته فى معجم الصحابة لابن قانع ، فجئت إلى الشيخ فأخبرته ؛ فبمجرد ما سمع منى ذلك أخذ نسخته وأخذ القلم فضرب على لفظ « ابن ماجه » ، وكتب « ابن قانع » وألحق « ابن قانع » فى الحاشية ؛ فأعظمت ذلك وهبته لعظم منزلة الشيخ فى قلبى واحتقارى فى نفسى ، فقلت : ألا تصبرون لعلكم تراجعون ! فقال : إنما قلّدت فى قولى « ابن ماجه » البرهان الحلبىّ . ولم أنفكّ عن الشيخ إلى أن مات .

ولزمت شيخنا العلامة أستاذ الوجود محي الدين الكافِيَجىّ أربع عَشرة سنة ، فأخذت عنه الفنون من التفسير والأصول والعربيّة والمعانى وغير ذلك . وكتب لى إجازة عظيمة .

وحضرت عند الشيخ سيف الدين الحنفىّ دروساً عديدة فى الكشاف والتوضيح وحاشيته عليه وتلخيص المفتاح والعَضُد.

وشرعت فى التَّصنيف فى سنة ست وستين ، وبلغت مؤلفاتى إلى الآن ثلثمائة كتاب ، سوى ماغسلته ورجعت عنه . وسافرت بحمد الله تعالى إلى بلاد الشام والحجاز واليمن والهند والمغرب والتَّكرور .

ولما حججت شربت من ماء زمزم لأمور ، منها أن أصل فى الفقه إلى رتبة الشيخ سراج الدين البُلقينىّ ، وفى الحديث إلى رتبة الحافظ ابن حجر . وأفتيتُ من مستهلّ سنة إحدى وسبعين ؛ وعقدت إملاء الحديث من مستهلّ سنة اثنتين وسبعين .

ورزِقت التبحر فى سبعة علوم : التفسير ، والحديث ، والفقه ، والنحو ، والمعانى ، والبيان ، والبديع على طريقة العرب والبلغاء ؛ لا على طريقة العجم وأهل الفلسفة .

والذى أعتقده أن الذى وصلت إليه من هذه العلوم السبعة سوى الفقه والنقول التى اطلعت عليها ، لم يصل إليه ولا وقف عليه أحد من أشياخى فضلا عمّن هو دونهم ؛ أما الفقه فلا أقول ذلك فيه ؛ بل شيخى فيه أوْسَع نظرا ، وأطول باعا .

ودون هذه السبعة فى المعرفة أصول الفقه والجدل والتّصريف ، ودونها الإنشاء والترسّل والفَرائض ، ودونها القراءات ــ ولم آخذها عن شيخ ــ ودونها الطب . وأمّا علم الحساب فهو أعْسَر شىء علىّ وأبعده عن ذهنى ، وإذا نظرت إلى مسألة تتعلق به ، فكأنما أحاول جبلا أحمله .

وقد كملت عندى الآن آلات الاجتهاد بحمدالله تعالى ، أقول ذلك تحدُّثا بنعمة الله علىّ ، لا فخرا ، وأىّ شىء فى الدنيا حتى يطلب تحصيله بالفخر ! وقد أزف الرحيل ، وبدا الشيب ، وذهب أطيب العمر ، ولو شئت أن أكتب فى كلّ مسألة مصنفا بأقوالها وأدلتها

النقلية والقياسية ومداركها ونقوضها وأجوبتها والموازنة بين اختلاف المذاهب فيها لَقَدرت على ذلك من فضل الله لا بحوْلي ولا بقوّتي ؛ فلاحول ولا قوّة إلا بالله ، ما شاء الله ، لا قوّة إلا بالله .

وقد كنت في مبادئ الطّلب قرأتُ شيئا في المنطق ؛ ثم ألْقَى الله كراهته في قَلْبي . وسمعت ابنَ الصَّلاح أفتى بتحريمه فتركته لذلك ، فعوّضني الله تعالى عنه علمَ الحديث الذي هو أشْرَف العلوم .

وأمَّا مشايخي في الرواية سماعا وإجازة فكثير ، أوردتّهُم في المعجم الذي جمعتُهم فيه وعدّتهم نحو مائة وخمسين . ولم أكثر من سَماع الرِّواية لاشتغالي بما هو أهمّ ؛ وهو قراءة الدّراية»[1] .

* * *

وقد ظل السيوطي طوال حياته مشغوفا بالدرس ؛ مشتغلا بالعلم ؛ يتلقاه عن شيوخه ، أو يبذله لتلاميذه ، أو يذيعه فُتيا ، أو يحرره في الكتب والأسفار ؛ وحينما تقدم به العُمُرْ ؛ وأحسّ من نفسه الضعف، خلا بنفسه في منزله بروضة المقياس واعتزل الناس ، وتجرّد للعبادة والتصنيف ؛ وألف كتابه : « التنفيس في الاعتذار عن الفتيا والتدريس » .

وكان رحمه الله في حياته الخاصة على أحسن ما يكون عليه العلماء ورجال الفضل والدين ؛ عفيفاً كريماً ؛ غنيّ النفس ، متباعدا عن ذوي الجاه والسلطان ؛ لا يقف بباب أمير أو وزير ؛ قانعاً برزقه من خانقاه شيخو ؛ لا يطمع فيما سواه . وكان الأمراء والوزراء يأتون لزيارته ويعرضون عليه أعطياتهم فيردّها ؛ وروى أن السلطان الغوري أرسل إليه مَرّةً خصيًّا وألْف دينار ؛ فردّ الدّنانير ؛ وأخذ الخصيّ ثم أعتقه ، وجعله خادما في الحجرة النبوية ؛ وقال لرسول السلطان : لا تعد تأتينا قطّ بهدية ؛ فإن الله أغنانا عن ذلك .

وأما كتبه فقد أحصى السّيوطي منها في كتابه نحوا من ثلاثمائة في التفسير وتعلقاته والقراءات ، والحديث وتعلقاته ، والفقه وتعلقاته ، وفن العربية وتعلقاته ، وفنّ الأصول

(١) حسن المحاضرة ١ : ١٤٢ ـ ١٤٤ .

والبيان والتصوّف ، وفن التاريخ والأدب ، والأجزاء المفردة ؛ ما بين كبير فى مجلد أو مجلدات ، وصغير فى كراريس أو أوراق ؛ وذكر تلميذه الداوادىّ المالكى أنها أنافت على خمسمائة مؤلف ، وقال ابن إياس فى تاريخه (حوادث سنة ٩١١) : إنهـا بلغت ستمائة مؤلف .

وتقع هذه الكتب فى مجلد أو مجلدات ؛ كالمزهر والإتقان والأشباه والنظائر وبغية الوعاة والدر المنثور فى التفسير بالمأثور والجامع الصغير والجامع الكبير وأمثالها ؛ أو فى أوراق أو صفحات ؛ كهذه الرسائل التى طبعت باسم الحاوى فى الفتاوى ؛ فى مجلد يحوى ثمانيــة وسبعين كتابا فى معظم الفنون وقد تدارس العلماء هــذه الكتب فى كل مكان ؛ وانتشرت فى حياة السيوطى وبعده ، وعمرت بهـا المدارس والمعاهد ودور الكتب ، وكاتبه المستفتون من شتى الجهات ؛ مما أثار عليه فريقا من أقرانه ومعاصريه من العلماء ؛ تحاملوا عليه ورموه بما هو منه براء ؛ وكان من أشد الناس خصومة عليه ؛ وأكثرهم تجريحا وتشهيرا ، المؤرخ شمس الدين السخاوىّ ؛ صاحب كتاب الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع ؛ فقد ترجم له فى هذا الكتاب ؛ ونال من علمه وخلقه ، مما يقع مثله بين النظراء والأنداد ، وقد انتصر السيوطى لنفسه فى مقامة أسماها « الكاوى على تاريخ السخاوى » ؛ كما انتصر له فريق من تلاميذه وفريق من العلماء ممن جاء بعده ؛ منهم الشوكانى صاحب البدر الطالع ؛ قال فى ترجمته للسيوطى بعد أن لخص مطاعن السخاوى فيه ؛ ورد هذه المطاعن عنه : « وعلى كل حال فهو غير مقبول عليه لمـا عرفت من قول أئمة الجرح والتعديل بعدم قبول قول الأقران بعضهم فى بعض ؛ مع ظهور أدنى منافسة ؛ فكيف بمثل المنافسة بين هذين الرجلين التى أفضت إلى تأليف بعضهم فى بعض ! فإن أقلّ من هذا يوجب عدم القبول ؛ والسخاوى رحمه الله وإن كان إماما غير مدفوع ؛ لكنه كثير التحامل على أكابر أقرانه »[1] .

(١) البدر الطالع ١ : ٣٣٣ ، ٣٣٤ .

وكانت وفاة السيوطى ـ على ما ذكره ابن إياس ـ فى يوم الخميس تاسع شهرى جمادى الأولى سنة ٩١١ ، ودفن بجوار خانقاه قوصون خارج باب القرافة ، بعد أن ملأ الدنيا علما وفضلا ، وشهرة وذكرا .

محمد أبو الفضل إبراهيم

مصر الجديدة : ١٩ شعبان سنة ١٣٨٤هـ
٢٣ ديسمبر سنة ١٩٦٤م
